تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً. . .»[١] اللّهم إلّا إسماعاً لعباد الله لكي يرغبوا في الدعاء، أم تلذذاً بصريخ الدعاء فلا بأس إذاً بل هو أولى.

ولأن الدعاء هي مخ العبادة حصيلةً لأقرب حالات القرب إلى الله والتعلق التدلي بالله، نرى آيتها هذه على اختصارها تأتي بضمير المتكلم وحده لله سبع مرات، خرقاً للحجب السبعة بين العبد وربه، كما وتعبر عن السائلين إياه بـ﴿عِبَادِي﴾ وهي أشرف تعريف بهم دون «الناس» أما شابه من عامة التسميات لنا.

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ إليهم قرب المكانة علماً وقدرة دون قرب المكان والزمان، فـ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٢] معية العلم والقدرة والرحمة رحمانية عامة للكل ورحيمية خاصة لمن يستحقها.

فليس قربه إلينا أم إلى أي شيءٍ قربَ المسافة، بل هو أقرب القرب ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٣] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[٤] بل و﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[٥] فبعد أن ليس أقرب إلينا - ككل - منا، فالله أقرب إلينا منا، يعلم منا ما لا نعلمه، ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٦] ويقدر علينا ما لا نقدره أو نقدّره.

---

(١) المصدر ١٩٥ عن أبي موسى الأشعري قال كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نهبط وادياً إلّا رفعنا أصواتنا بالتكبير فدنا منا فقال يا أيها الناس . . . إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته «أجل» ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وإنما كلمهم الرسول ﷺ كما يفهمون.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٣) سورة ق، الآية: ١٦.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٨٥.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٦) سورة طه، الآية: ٧.

ودعوة الداع المجابة حسب الوعد المؤكد هنا وفي آيات أخرى، قد تعم الدعوة بلسان الحال والقال، حيث يعمهما السؤال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[١] - ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[٢] وسؤال الحال أيضاً يعم سؤال الفطرة، وسؤال واقع الحال قضية المصلحة الحيوية، كما وإن سؤال القال يعم خاطرة النفس وحديثها، ثم الكلام خفية وجهاراً وعلى أية حال.

وترى ما هو دور ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ بعد ﴿دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾؟ إنه توجيه للدعاء إليه فإن دعوة الداع طليقة من حيث المدعو، كما وهو تعميق وتحقيق للدعاء، تخطّياً عن مجازه إلى حقه، وعن ظاهره إلى باطنه، بأن يصبح العبد كله دعاءً، لا أن يدعو الله بلسانه وقلبه غافل لاه[٣] متعلق بسواه، أو يدعوه بقلبه ولسانُه يدعو سواه، أم يدعوه بقلبه ولسانه وهو يرجو - فيما يرجوه - سواه، فكثير هؤلاء الذين يدعون الله بحرف من حروف الدعاء، ثم هم متجهون إلى سواه بسائر حروف الدعاء أم بحرف من حروفها فـ﴿دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ في أية مرحلة من مراحل الدعاء، هي شرط أول لقضاء الحاجة، ثم وأهم منها شرط ثان: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ في معنييها المعنيين عبادة واستدعاء بحق، ومن ثم ثالث: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ ثقة بالاستجابة. فإنما ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ في، توحيداً في دعائه مصحوباً بحق الدعاء والدعاء الحق ومعرفة كاملة فـ«لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال»[٤]، فإذا صادف صالَحه في أية نشأة من

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.
(٣) الدر المنثور ١: ١٩٥ عن النبي ﷺ ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه، وفيه ١٩٦ - أخرج أحمد في الزهد عن مالك بن دينار قال قال الله تبارك وتعالى على لسان نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لبني إسرائيل تدعوني بألسنتكم وقلوبكم بعيدة مني بأحل ما تدعوني، وقال: تدعوني وعلى أيديكم الدم اغسلوا أيديكم من الدم أي من الخطايا هلموا نادوني.
(٤) المصدر ١٩٦ - أخرج الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: . . .

النشآت استجيب فيها، وإلّا فتحولاً إلى صالح لم يدع له حيث، ﴿فَإِنِّي. . . أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ تُحتِّم الإجابة الصالحة، ولكنها دون توقيت، ولا تثبيت لخصوص ما دعى، وقد تعني ﴿إِذَا دَعَانِۖ﴾ - فيما عنت من الدعاء الاستدعاءِ - دعاءَ العبودية كشرط أصيل في استجابة الاستدعاء: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾[1] فدعوة الله الأصيلة هي دعوة العبودية، وهي المتفرعة عليها دعوة الاستدعاء، ومن حصائل ﴿إِذَا دَعَانِۖ﴾ هذه ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ دعائي إياهم لعبادتي وفاءً بعهدي: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَٱرْهَبُونِ﴾[2] ثم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ دعائي لهم أن يدعوني: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3].

﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ إيماناً صالحاً ككلٍّ، وفاءً بعهد الفطرة وعهد الرسالة، ثم ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ إيماناً بتحقيق وعد الإجابة «وليتحققوا أني قادر على إعطائهم ما سألوه»[4] ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ إلى كل سؤال صالح يدعون له.

وإنها آية عجيبة تسكب في قلوب المستجيبين المؤمنين الداعين ربهم النداوة الحلوة والودِّ الأنيس، والطمأنينة والثقة واليقين، فيعيش منها المؤمن في جناب رضىً وملاذٍ أمين بقرار مكين إلى حضرة رب العاملين.

وإنه قريب برحمته - إجابةً لسؤال - إلى عباده السائلين إذا دعوه بشروطها المسرودة في الذكر الحكيم، فاتحاً له خزائنه بدعائه أينما دعاه «ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته فلا يقنطك إبطاء

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٤) في المجمع روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: وليؤمنوا بي، أي وليتحققوا. . .

إجابته فإن العطية على قدر النية، وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيراً منه عاجلاً أم آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له»[(١)].

ألا «فاحترسوا من الله عَزَّوَجَلَّ بكثرة الذكر، واخشوا منه بالتقى، وتقرَّبوا إليه بالطاعة فإنه قريب مجيب»[(٢)].

فلا أصالة لمكان الدعاء وزمانها، وإنما هي مكانتها أينما كانت ومن أيٍّ، فهي تتمحور مثلثاً كأصل هو ﴿إِذَا دَعَانِۖ﴾ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ إذاً فالإجابة تقدَّر بقدر الاستجابة والإيمان، والدعاء الخالصة الموحدة على ضوئها ومن ثم «أجيب...» «يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني»[(٣)].

و«إن ربكم حي كريم يستحي إذا رفع العبد يديه إليه أن يردها حتى يجعل فيهما خيراً»[(٤)] «يقول الله تعالى: يا ابن آدم واحدة لي وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك وواحدة فيما بينك وبين عبادي، فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً وأما التي لك فما عملت من شيءٍ أو من عمل وفيتكه وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة وأما التي بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضى لنفسك»[(٥)].

---

(١) عن نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(٢) نور الثقلين ١: ١٧١ في روضة الكافي خطبة طويلة مسندة له عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول فيها: ...
(٣) الدر المنثور ١: ١٩٥ - أخرج أحمد عن أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: يقول الله: ...
(٤) المصدر ١: ١٩٥ عن سلمان الفارسي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: ...
(٥) المصدر ١٩٥ - أخرج الطبراني في الدعاء عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ...

ثم الاستجابة بحق الدعاء ليست في إثم أو قطيعة رحم[١]، أو أمر مستحيل، أو الذي بيدك أمره، إنما هي فيما لا تناله بحولك فقط وقوتك، من الممكن في ذاته، والممكن مصلحيّاً بدعائك، والاستعجال في إجابة الدعاء تآمر على الله وتأمُّر، ويأتي على المؤمن موقف في الأخرى يقول: «يا ليته لم يكن عجل له شيءٌ من دعائه»[٢].

ومن موانع إجابة الدعاء سوء الأدب فيها، أن يطلب سؤاله دون أن يرضى بسواه، أم يطلب عاجله دون آجله، فـ«لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل... يقول قد دعوت ربكم فلم يستجب لي»[٣].

والدعاء في محالها الصالحة هي مما تُحرز مصلحة الإجابة، فلولاها لما صلحت مهما كان هناك سؤال صالح في نفسه، ولكنه لا يُعطاه إلا باستعطائه، ومن مصلحة الدعاء أنها مخ العبادة لأنها انقطاع عن الأسباب المعسورة أو غير الميسورة لصاحبها، إلى مسبب الأسباب.

فحتى لولا الإجابة فيها، فهي صالحة في نفس ذاتها كسائر العبادات أم هي أحرى لأنها مخُّها! وكما لا يحتم لك الجزاء هنا - إلا قليلاً - على

(١) المصدر عن أبي سعيد أن النبي ﷺ: قال «ما من مسلم يدعوا الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلّا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا إذاً نكثر؟ قال: الله أكثر».

(٢) المصدر أخرج الحاكم عن جابر مرفوعاً: يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول عبدي إني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك فهل كنت تدعوني؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: أما أنك لم تدعني بدعوة إلّا أستجيب لك، أليس دعوتني؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: أما أنك لم تدعني بدعوة إلّا أستجيب لك، أليس دعوتني يوم كذا وكذا لغمّ نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجا؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول: إني أدخرت لك بها في الجنة كذا وكذا ودعوتني في حاجة قضيتها لك، فقال النبي ﷺ: «فلا يدعو الله عبده المؤمن إلّا بيّن له إما أن يكون عجل له في الدنيا وإما أن يكون ادّخر له في الآخرة فيقول المؤمن في ذلك المقام: يا ليته..».

(٣) المصدر ١٩٦ - أخرج أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال:...

سائر العبادات، فبأحرى الدعاء وهي مخ العبادات، فإنما نحن مؤتمرون في مختلف أشكال العبادة، ثم الجزاء من الله بما وعده كما يشاء ومتى يشاء، والمستجاب من الدعاء هنا - في الأكثر - هو دعاء الهداية - الصالحة، وسائر ما ينفع في مزيد التقوى التي لا تقوى عليها إلّا بعون من الله، وأكثر ما لا يستجاب هي من الأمور التي لا تنفعك في هواك، أم يزيد في هواك، أم لا ينفع لا في أولاك ولا أخراك، فالله يعوّضك عنها هنا أو في الأخرى ما تحتاجه هدىً أم علو درجة.

وهنا تتساقط قيلات على الدعاء، أنها إنما تصلح في حق من لا يعلم الحاجات بمصالحها، أو يضن بها لولا الدعاء حظوة للاستجداء، وإنها كتطلّب الآمر والناهي وهو إزراء بساحة الربوبية، أماهية من قيلات هي ويلات من قائليها.

فربنا هو الذي يأمرنا بالدعاء حيث يرى فيها صالح الداعي، وبما أنها مخ العبادة فهي أصيلة في حقول العبادة، قد لا يعطينا ربنا سؤالنا إلّا إذا انقطعنا إليه ودعوناه، ولكي نحظو الزلفى إليه وفوق ما نحظوه في الاستجابة.

ففي حديث قدسي: «يا موسى سلني كل ما تحتاج إليه حتى علف شاتك وملح عجينك»[١] و«الدعاء سلاح المؤمن»[٢] طبعاً لما فيه صلاحه باستصلاحه بها.

---

(١) في عدة الداعي.

(٢) رواه الفريقان عن النبي صلى الله عليه وآله. وعن العدة في رواية محمد بن عجلان عن محمد بن عبيد الله بن علي بن الحسين عن ابن عمه الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أوحى الله إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه: وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل آمل أمل غيري بالإياس ولأكسونَّه ثوب المذلة في الناس ولأبعدنه من فرجي وفضلي أيأمل عبدي في الشدائد غيري والشدائد بيدي ويرجو سوائي وأنا الغني الجواد، بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني. =

وكختام لحقل الدعاءِ الاستدعاءِ طلباً لحاجيات روحية أو سواها، مُتَصورُ الدعاء ليس إلّا في أربع، حاجة حاصلة دون دعاء، كالتي كتب الله على نفسه برحمة عامة رحمانية، كالضرورات الحيوية للإنسان مؤمناً وسواه، أم حاجة حاصلة بما منح الإنسان من حول وقوة كما الأكل والشرب أما شابه، فلا دعاء هنا وهناك.

وحاجة مستحيلة بطبيعة الحال، أو مصلحياً، وكذلك الأمر، ثم عوان بينهما من الحاجيات الممكنة، سواء التي له فيه شأن ولا تكفي محاولاته للحصول عليها، أو التي انقطعت الأسباب دونها، فهنا لك الدعاء ولا سيما فيما تكلّ فيه الأسباب.

فلا دعاء - إذاً - إلّا في الممكن المعقول، المحتمل صلاحُه، حين استأصلت دونه طاقته، فليستمد بحول الله وقوته بشروطه المذكورة في حقل الدعاء.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ امتنان علينا بما أحل لنا من محرم علينا، حيث الإحلال

= وعنها عن النبي ﷺ قال قال الله: ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلّا قطعت أبواب السماوات وأسباب الأرض من دونه فإن سألني لم أعطه وإن دعاني لم أجبه، وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السماوات والأرض رزقه فإن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وإن استغفرني غفرت له.

ليس إلّا عن عقد التحريم، فليكن الرفث إلى النساء معقوداً علينا محظوراً ليلة الصيام من قبل حتى يصح ﴿أُحِلَّ﴾ إضافة إلى دلالة ﴿تَخْتَانُونَ﴾. ﴿فَتَابَ﴾. ﴿وَعَفَا﴾. ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ فهي خماسية الأدلة اللفظية هنا على سابق حظر الرفث إلى النساء.

وليس يدل سابق حظره على أنه من أحكام التوراة، فقد يجوز أنه كان محظوراً بالسُّنة الإسلامية ببيان الرسول ﷺ ثم نسخته هذه الآية، كما وإن سائر الإمساك مادة ومدة في الصيام لا بدَّ وأنه مبين بالسُّنة، وقد جاءت هنا إمساكات ثلاث هي أمهاتها: رفثاً وأكلاً وشرباً، لا فحسب، بل وآية فرض الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ طليقة بالنسبة لـ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ... شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ حيث تعم ليالي رمضان إلى نهاراته، اللّهم إلّا في غير الرفث إلى النساء أكلاً وشرباً، فضلاً عما دونهما، حيث الأكل والشرب في الإفطار ضرورة لا محيد عنها، و﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ...﴾ تحليل لما زاد عن الفطور.

فقد كان الرفث إلى النساء محرماً طيلة رمضان ليل نهار، ثم أبيح هنا ليلاً وبقي النهار، كما أبيح الأكل والشرب بين الفطور والسحور وبقي النهار، فآية الإحلال - إذاً - تنسخ إطلاق فرض الصيام أياماً معدودات: شهر رمضان.

ثم ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ هي كل ليالي رمضان، دون الأولى فقط اللهم إلّا كأولى مصاديقها من رمضان[1]، فليست التاء هنا للإفراد، فإن الأفراد هنا كلُّ ليلةُ الصيام، دون اختصاص بليلة دون أخرى، واختصاصها بالأولى تخرج الليالي الأخرى عن كونها من ليالي الصيام، فالتاء - إذاً - هي للجنس هنا، سواء الليلة الأولى أم سواها، وسواءٌ فيها ليالي رمضان وسواها من ليالي الصيام.

(١) نور الثقلين ١: ١٧٢ في كتاب الخصال فيما علّم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه من الأربعمائة باب قال: يستحب للمسلم أن يأتي أهله أوّل ليلة من شهر رمضان لقوله تعالى.

و«الرفث» في الأصل هو المقبوح من قول وعمل، وهو بمناسبة النساء يختص بالأمور الأنثوية الجنسية معهن تقبيلاً ولمساً ووطئاً وكلاماً يناسبها حالتها أو قبلها، فهي كلها محرمة في الإحرام ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ لمكان نفي الجنس دون اختصاص بأمر خاص.

ولكنه هنا الجماع لأنه ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ﴾ حيث الجار يوحي لمعنى الإفضاء، ثم يعرف الحل لسائر الرفث الأنثوي بالأولوية القطعية، فحين يحلّ عمل الجنس معهن، فلتحل مقدماته بأحرى وأولى، ولو قال «رفث نساءكم» لخيل إلينا أن الرفث ككل كان محرماً ليلة الصيام، وهو محرم الآن نهار الصيام!.

ولماذا التعبير عن وطئ النساء بالرفث وهو القبيح؟ لأنه في أصله مما يختجل منه على حلِّه، ولكنه كان محرماً ليلة الصيام فاستحق قبحاً شرعياً على قبحه عرفياً، ثم أحلّ الرفث إخراجاً عن قبحه شرعياً، ثم لا مجال لاستقباح العرف ما أحلّه الله، أم ورجحه أحياناً وفرضه أخرى، وحرمة الرفث إلى نسائكم - وهي محللة مبدئياً - تحرِّم بأحرى وأولى الرفث إلى سائر النساء، وإلى سائر الحيوان، وارفث من الكل واركس الرفث إلى الذكران، ومن حرمة الرفث إلى نسائكم تستفاد حرمة المعاكسة بالملازمة، فقد حرم رفث النساء إلى رجالهن.

وعلّ ترك التصريح بالعكس رعاية للحفاظ على رفث النساء، وكما في سائر القرآن اللهم إلّا عند الضرورة الأحكامية كـ ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[1].

وترك «أزواجكم» الشاملة للعكس، إلى «نسائكم» علّه لأن ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ﴾ هو في الأغلبية الساحقة من الرجال إلى النساء، ولا عكس إلّا قليلاً، ثم لا دلالة ظاهرة لـ «أزواجكم» في عكس الرفث، إضافة إلى أنها لا تشمل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٠.

الحلائل غير الأزواج، وترى «نساءكم» تعني كل الحلائل وحتى الإماء مملوكة أو موهوبة؟ طبعاً نعم، فلم يقل «أزواجكم» لتختص بغيرهن، و«نسائكم» تشمل كل الحلائل بأسرهن دون إبقاء.

ثم من الرفث إلى النساء - بطبيعة الحال - الإمناء، فإنه خاص بـ«إلى نسائكم» إدخالاً فيهن أو ملاعبة معهن، فأما الإمناء المفصول عنهن فهو محرم على أية، حال فحرام في الصيام بقاطع الأولوية، وأنه رفث جنسي يختص من الرجال إلى نسائكم.

ولماذا أحلَّ لكم الرفث بعد حرمته؟ لأمرين اثنين، الأول هو الضابطة العامة من رباط الرفث بين الزوجين ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ والثاني ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ . . .﴾.

واللباس هو المباشر لجسم الإنسان من ساتر يستر عورته ويستر عنه الحرَّ والبرد وسائر البأس، فلأن كلّاً من الزوجين قريب إلى زوجه قربَ اللباس، مشتملاً عليه بكل مراس، وأن ذلك الاشتمال يستر كلّاً عن نزوة الجنس غير المحللة.

لذلك فحرمة الرفث كانت شرعة ابتلائية مؤقتة كسراً شاملاً لنزوة الجنس، خلافاً لطبيعة اللباس، فأحلّه لكم بعد ما حرم.

ثم ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ . . .﴾ منذ حرمه عليكم ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ . . .﴾.

في حظر الرفث إلى نسائكم، وكما اختانوا بعضاً ما ومنهم الخليفة عمر حسب ثابت الأثر ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ برحمته الواسعة بعد ضيق حرمة الرفث ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ما كنتم تختانون.

والاختيان افتعال من الخيانة وهي التنقص في الأمانة بخلاف الوفاء فيها، فنفس الإنسان أمانة إلهية، والتكاليف الإلهية أمانات عنده، والصوم